كلية: التربية الاساسية – حديثة

القسم: قسم التاريخ

مدرس المادة: د. حسام ابراهيم

المرحلة الدراسية : الرابعة

الفصل الدراسي: الثاني

اسم المادة باللغة العربية : تاريخ العراق الاجتماعي

اسم المادة باللغة الانكليزية: Course Title: Social History of Iraq

اسم المحاضرة باللغة العربية: تركيبة العراق الاجتماعية منذ اواخر القرن التاسع عشر حتى نهاية العهد الملكي

اسم المحاضرة باللغة الانكليزية: First Lecture Title: The Social Structure of Iraq from the Late Nineteenth Century to the End of the Monarchy

المحاضرة الاولى/ تركيبة العراق الاجتماعية

كانت القبائل والعشائر الرحل او البدوية تشكل نسبة مهمه من سكان العراق في القرن التاسع عشر الا ان نسبتهم تراجعت بصورة مستمرة منذ ذلك الحين بفعل التحولات الاقتصادية التي شهدها العراق منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر والمساعي التي بذلت لتوطين تلك القبائل والعشائر وتشجيعها على الاستقرار، ففي حين قدرت نسبة تلك القبائل والعشائر بنحو ٣٥% من سكان العراق في سنه ١٨٦٧م، فأن نسبتهم انخفضت الى نحو ٢٥% ثم الى ١٧% في سنة ١٩٠٠، و ١٩٠٥م على التوالي، ثم انخفضت النسبة الى ٨% حسب تقدير داوسن فس سنة ١٩٣٠، وكان ٣٥% منهم يعيشون في الالوية الشمالية (الموصل وكركوك واربيل والسليمانية) بينما يعيش ٦٥% منهم في الالوية الوسطى والجنوبية يومئذ.

ان اهم القبائل البدوية هي شمر وعنزة والظفير، وديار هذه القبائل هي بادية الجزيرة بين نهري دجلة والفرات الى الشمال الغربي من بغداد وكذلك الصحراء الواسعة الممتدة الى الغرب من نهر الفرات حتى الحدود السعودية، وتعد بادية الجزيرة التي تمتد حتى الحدود السورية، ديرة قبيلة شمر البدوية، اما منطقة الصحراء او البادية الواسعة في غربي وجنوب غربي العراق فهي ديار قبيلتي عنزة والظفير البدويتين، الاولى في الشطر الشمالي منها (البادية الشمالية) والثانية في الشطر الجنوبي منها (البادية الجنوبية)، اما العشائر الرحل الكردية فقد تمثلت في اجزاء من عشائر البلباس والجاف في لواء السليمانية واجزاء من عشيرة الهركي وعشيرة السورجي في لوائي اربيل والموصل.

وتعتمد القبائل والعشائر الرحل في معيشتها على الرعي وخاصة الابل والغنم بالنسبة للقبائل العربية، والغنم والماعز بالنسبة للعشائر الكردية، وهي لذلك في حل وترحال من مكان الى اخر بحثاً عن الماء والكلأ فضلاً عن الرعي فأن الاتاوة (الخاوة او الخوة) التي تؤخذ من التجار والمسافرين عبر ديار البدو تعد

مورداً اضافياً لهم، كما انهم يحصلون على مورد رزق اخر من تأجير ابلهم لنقل سلع وبضائع التجار بين العراق وبلاد الشام، الا ان تأسيس الدولة العراقية الحديثة سنة ١٩٢١ وبسطها مزيداً من النفوذ على القبائل البدوية ادى الى حرمان البدو من الاتاوة، وان لم تنقطع نهائياً، ومن جهة اخرى ادى تطور المواصلات البرية وبضمنها النقل بالسيارات والشاحنات بين العراق وبلاد الشام منذ منتصف العشرينيات الى حرمان البدو من مورد النقل التجاري ايضاً.

كانت القبائل البدوية العربية تتجه نحو بطون البادية او الصحراء في اوائل الخريف سالكة فيها طرقاً معينة نحو المناطق التي تكثر فيها المراعي، وتعتمد تحركات القبائل البدوية على سقوط الامطار وكميتها لأنها تنعكس على توزيع المراعي وغناها، وتستمر عملية التجوال والترحال هذه طيلة فصلي الشتاء والربيع (من تشرين الاول حتى نهاية ايار) تعود القبائل البدوية بعدها ادراجها نحو موارد المياه حول الابار والعيون او على ضفاف دجلة والفرات، وهم يبقون في هذه المناطق طيلة فصل الصيف، وقد يعمل قسم منهم اثناء ذلك في نقل الحبوب من المزارع الى المدن والقرى القريبة التي تشكل مراكز تجارة الحبوب، كما هي الحال في الموصل، وفي نهاية الصيف وبداية الخريف يتزودون بالمؤن ومواد المعيشة ويتجهون نحو البادية او الصحراء مره اخرى.

ويختلف ترحال العشائر الكردية في جوانب معينة منه عن ترحال القبائل البدوية العربية او البادية، فالرعاة الكرد يمضون فصل الصيف في مراعيهم فوق روابي الجبال، او ما يسمى (كردستان) ثم يهبطون بقطعانهم في نهاية الصيف الى الوديان والسهول حيث مراعيهم الشتوية او ما يسمى (كرميان)، وهكذا يتميز الترحال الكردي بحركة منظمة محدودة وبمناطق ثابتة، اما القبيلة البدوية فلا تخضع لمثل هذه القيود، صحيح ان ترحالها يخضع لنظام معين تقرره حالة المياه في منطقة الرعي، الا ان حالة المياه في منطقة ما من الصحراء لا يمكن تحديدها سلفاً نظراً لتميز المطر في الصحراء بذبذبة عالية ومن هنا فأن الرعاة الكرد يتركون بعض ممتلكاتهم مع اقربائهم الذين يستقرون بشكل دائم في مرابعهم الشتوية، بينما يحمل البدوي العربي كل ما يمتلكه معه اثناء ترحاله وتجواله، ومن جهة اخرى فأن الرعاة الكرد قد يزاولون الزراعة في مرابعهم الصيفية وان كانت في نطاق ضيق، بينما يأنف البدوي العربي من الزراعة كلياً.

ان حياة التنقل الدائم طبعت حياة افراد القبائل والعشائر الرحل بطابع البساطة، فهم يسكنون في خيام مصنوعة من وبر الابل او الماعز يسهل طيها وحملها، مع ملاحظة ان حجم خيمة البدوي تختلف حسب حالته الاقتصادية ومكانته الاجتماعية، وينطبق الشئ ذاته على حاجاتهم المنزلية وملابسهم البسيطة، اما طعامهم فيقتصر على البان مواشيهم ولحومها وما يستطيعون الحصول عليه من الحواضر بالمقايضة على مواشيهم ومنتجاتها من اللبن والسمن والصوف والجلود، وغني عن القول ان طبيعة حياة البدو والرعاة جعلتهم يتميزون بالخشونة والقدرة على التحمل.

والاسرة البدوية كبيرة ومتماسكة في العادة، ولدى البدوي ميل الى كثرة الاولاد، فهم الذين يرثونه ويحملون اسمه من بعده كما يعضدونه في الحياة الخشنة في البوادي والصحاري، ولذا فأن البدو يضعون المتزوج في مقام لا يضعون الاعزب فيه، والزواج المبكر هو الشائع بينهم، وتتسم الاسرة بسيطرة الرجل واحترام الشيوخ والطاعنين بالسن، اما المرأة فيقع عليها عبئ كبير داخل الاسرة، فهي تعتني بالأبناء وتحلب الماشية وتصنع اللبن والزبدة وتجمع الحطب وتطبخ وتخبز، وتحيك الخيام والبسط وما الى ذلك، في حين يقتصر عمل الرجل على رعي المواشي والدفاع عن قبيلته او عشيرته والمساهمة في وقائعها ضد القبائل او العشائر الاخرى، والرجل يعد قوياً بكثرة المواقع والغزوات التي اشترك فيها واوسمته هي جراحة فكلما زادت زاد معها صدره ومكانته في القبيلة، واذا هرب احدهم من القتال رفضته امرأته ولم تقبله في البيت وعيرته بالجبن، ويأنف البدوي من العمل اليدوي ويعتبر المزارعين والصناع ادنى منزلة منه بوصفه محارباً.

والاسرة تسمى بيت هي نواة العشيرة، ويتألف الفخذ العشائري من عدد من البيوت المرتبطة برابطة النسب المنحدرة من الجد الخامس، وتتألف العشيرة من عدة افخاذ ترتبط بمصالح مادية ومنافع مشتركة وانسابها البعيدة، وقد تتكون العشيرة من افخاذ لا ترتبط برابطة النسب البعيد المشترك، بل المصلحة المشتركة التي توحد فيما بينها للمحافظة على كيانها ومراعيها واراضيها، بل ان القبيلة الكبيرة نفسها قد تتألف من عشائر مختلفة تعود في الاصل الى قبائل مختلفة، قبيلة الظفير البدوية تألفت من عدة عشائر مختلفة تضافرت مع بعضها واندمجت فأطلق عليها اسم الظفير، وللقبيلة او العشيرة البدوية قواعد واعراف تنظم الحياة فيها استناداً الى مبدأ المساواة في القربى وسيادة مصلحة الجماعة، وواجب القبيلة او العشيرة توفير الحماية لأفرادها وبالتالي فأن كل فرد الوقوف بجانب عشيرته في كل الظروف.

وتكون العشيرة او القبيلة تحت زعامة شيخ او مسؤول عن ادارة امورها، فهو الذي يعين اوقات الترحال ومناطق نصب الخيام، ويقوم بواجب الضيافة والمفاوضات مع القبائل الاخرى او مع سلطات الدولة، وتنحصر المشيخة عادة في اسرة او بيت معين، وفي حال القبائل الكبيرة التي تضم عشائر عديدة يكون هناك شيخ اعلى او شيخ مشايخ القبيلة، فعلى سبيل المثال كان لقبيلة شمر البدوية في منطقة الجزيرة شيخ مشايخ هو عجيل الياور في تلك الفترة، وتكون خيمة الشيخ في العادة بمثابة مجلس يستطيع اي فرد من القبيلة او العشيرة حضوره والتحدث فيه، ويتم ذلك يومياً مساءاً، او في النهار احياناً ويتحدث الحاضرون في المجلس في مختلف الشؤون الخاصة وفي امور القبيلة، وغالباً ما يسود منهم فصيحوا اللسان واقوياء المنطق والحجة، ويحظى كبار السن ووجهاء القبيلة بالمكانة والاحترام في المجلس، كما ان للشخص الذي يقضي بين البدو ويعرف بالشرع او العارفة منزلة كبيرة ومقاماً عظيماً لديهم، فأحكامه مطاعة من الجميع واذا اعصاه احد طرد وعيره الجميع، ويتم اختيار العارف عادة بين ذوي الاخلاق الحسنة والاستقامة، وللشيخ عادة اتباع ومقربون يعرفون بالعبيد يكونون بمثابة حرس خاص له او يعنونه في بعض المهمات مثل ادارة المضيف او المراسلات او كأدلاء ذي خبرة في الاراضي والطرق، ويكون عدد هؤلاء العبيد بالعشرات لم تكن الحال تختلف كثيراً في العشائر

الكردية الرحل من حيث البساطة في المسكن والملبس والمأكل، ودور الاسرة ومكانة الرجل والمرأة فيها، كما كان رؤساء تلك العشائر، اي الاغوات يتمتعون بسلطة واسعة تكفل لهم السيطرة على شؤون عشائرهم، كما تكفل لهم مزايا اقتصادية عظيمة، ومع ان الاغا يستعين بمجلس من الشيوخ الطاعنين في السن اي الختيارية للاستشارة والنصح فان اراء ذلك المجلس لم تكن ملزمة بالنسبة له.

كان الغزو امراً شائعاً بين القبائل البدوية وتقاليده، وقد تواصلت هذه الغزوات بين القبائل في وسط البوادي والصحاري التي كانت مسرحاً للغارات المفاجئة والسلب والنهب مدة طويلة بعد تأسيس الدولة العراقية الحديثة، وفي سنه ١٩٢٧م صدر القانون رقم (٤٧) بشأن منع الغزو والنهب واتخذت الحكومة العراقية عدة اجراءات للقضاء على تلك الظاهرة التي كانت تؤثر احياناً في علاقات العراق مع جيرانه وخاصة السعودية، كما تم عقد اكثر من مؤتمر حضره عدد من شيوخ القبائل العراقية والسورية لفض المنازعات القائمة بينهم بشأن عمليات الغزو والممتلكات المنهوبة، ففي نيسان ١٩٢٧ عقد مؤتمر في عانة لذلك الغرض، كما عقد مؤتمر مماثل في شباط ١٩٢٩ في الحسكة بسوريا.

في غضون كل ذلك كانت فترة العشرينات من ذلك القرن تشهد تحولات تركت تأثيراً مباشراً في الحياة البدوية، ودفعت بأتجاه التوطن والاستقرار تدريجياً فالسكك الجديدة والسيارات وفتح طرق جديدة زادت من اتصال البدو بالمدن والمراكز الحضرية، وجلبت معها تأثيرات جديدة في حياة الصحراء واخذ بعض الشيوخ يرسلون ابنائهم الى المدن للدراسة في مدارسها، لان خدمات التعليم كانت معدومة في مناطقهم، وكان العديد من هؤلاء الابناء يتأثرون بحياة المدينة ويفضلون الاقامة فيها، كما ان استخدام المضخات الحديثة وتوسع رقعة الاراضي الزراعية التي اصبح امتلاكها يعد سبيلاً الى الثروة، ودفع الشيوخ الى امتلاك الاراضي وصاحب ذلك زيادة الميل نحو الاستقرار، وقد شجعت الحكومة العراقية هذا التوجه ومنحت الشيوخ اراضي واسعة لتوطين افراد قبائلهم، وقد خدمت هذه العملية الشيوخ اساساً لانهم سجلوا تلك الاراضي باسمهم، اما افراد قبائلهم الذين استقروا فقد تحولوا الى اقنان يعملون لصالح شيوخهم الذين تحولوا الى سادة اقطاعيين، حسبما ورد في تقرير رسمي بريطاني سنة ١٩٣١م.